الشرقية على ما سواها املمنا ان احوال الوطن وتواريخهُ ومشاهير رجالهِ لا تزال كمثل كنز دفين لا يُعرف منه الّا النزر القليل . وفي هذه السنة ان شاء الله نتوسّع في هذه الابحاث الوطنية ونبعث منها ما هو مستجنّ في اكفان النسيان قبل ان تأخذهُ يد الضياع ونحن نأمل من لطف قرائنا ان يؤازرونا على هذا العمل الخطير الذي لا يتمّ بغير التكاتف واجتماع القوى

ونختم بالدعاء اليه تعالى ان يشملنا وكلّ اصحاب الخير بنعمه الغزيرة في هذه السنة الجديدة تحت ظلّ اريكة متبوعنا الاعظم وسلطاننا الافخم بمنّهِ وكرمه

رئاسة

الاحبار الرومانيين على كنائس الشرق

في القرن الاول للنصرانيّة

للاب بوحنا رأي اليسوعي

انّ الرب لذكرهِ المجد في صلاتهِ الاخيرة الى ابيهِ السماوي (يو ١٧ : ٢١) طلب منهُ بالحاح ان يجمع قلوب تلامذتهِ بالوحدة والوفاق « ليكونوا باجمعهم واحدًا » وضرب مثلًا لهذه الوحدة ناهيك به من مثل حيث قال: « كما انك انت فيَّ وانا فيك فليكونوا هم ايضًا واحدًا فينا » ثمّ بيّن انّ هذه الوحدة هي سمةُ كنيستهِ الخاصّة وعلامةٌ يستدلُّ بها الناس على صحّة رسالتهِ « حتى يعلم العالم انك انت ارسلتني »

بيد انهُ لمن المستحيل ان تقوم هذه الوحدة بغير وحدة الايمان ووحدة الرئاسة كما اثبت ذلك باصدق البراهين العقليّة والشواهد النقليّة قداسة الحبر الاعظم ابينا البابا لاون الثالث عشر في رسالتهِ البديعة التي وجّهها منذ اربع سنوات الى العالم الكاثوليكي وحدة الكنيسة - ولا وحدة البتّة في الايمان والرئاسة خارجًا عن كرسيّ رومة كما قال اوبتاتوس الميلاوي من كتبة القرن الرابع : « في هذا الكرسي الوحيد يتعيّن على الكلّ ان يحفظوا الوحدة ». وكان القديس قبريانوس الشهيد سبق في رسالتهِ الى البابا

كورنيليوس: « انّ المنشأ الوحيد الذي منهُ نبعت الهرطقات وتولّدت الانشقاقات هو عدم الطاعة لحبر الله وإباء الاعتراف في الوقت نفسهِ بحبرٍ واحد وقاضٍ واحد ينوب مناب المسيح في الكنيسة »

ولمّا كان بعض اصحاب الغايات صوّبوا سهام الملامة الى اقاويل الحبر الاعظم ونسبوا ظلماً الى الاحبار الرومانيين ارتياحهم الى العظمة والرئاسة كانهم حصلوا على رتبتهم بالدسائس فاستبدّوا بسلطان لم يُعطَ لهم احبنا ان نرجع الى قرون الكنيسة الاولى حيث كان مَعين التعاليم الرّبية صافياً لم يَشُبْهُ شيء من المزاعم الباطلة فنستقري آثار تلك الاعصار لعلّنا نقف على معتقد المسيحيين الاولين في الكنائس الشرقيّة نفسها. فان اقرَّ معاصرو الرسل او خلفهم الأدنون بسلطان الكرسي الروماني فإنّ ذلك الّا صدى التعاليم الرسوليّة او بالاحرى صدى صوت المسيح الذي قال لتلاميذهِ (متى ٢٨: ١٩): « اذهبوا وبشّروا كلّ الامم وعلّموهم ان يحفظوا جميع ما اوصيتكم بهِ »

على انّ هذه المآثر القديمة كانت بقيت قروناً عديدة مدفونة في جوف الارض او في خبايا المكاتب حتى قام علماء عصرنا هذا وطافوا البلدان وبذلوا الدرهم عن نفس سخيّة فجاءت مساعيهم مكلّلةً بالنجاح وأحرزوا قُوق النضال. وفي عداد هؤلاء الجهابذة قوم ممن لا ينقادون الى سلطان الكنيسة او ينبذون ربقة كلّ دين فاضحى ما وجدوهُ من الشواهد الناطقة بسيادة خلفاء بطرس الصفاة كآيات باهرة لا يُستطاع ردّ قوّتها القاهرة

وفي مقالتنا هذه نقتصر على ذكر الشواهد التي تبيّن صريحاً انّ كنائس الشرق الاولى كانت تعترف جهاراً بان الحبر الروماني راعي الرعاة وان كنيستهُ امُّ الكنائس جمعاء لها السيطرة والسيادة عليها. وهذه الدلائل مع قلّتها لبعد العهد كافيةٌ لترضي العقول المنزّهة عن الهوى والاغراض وتُقنع من يطلب الحقّ بحثاً صرفاً لوجه الله

*

واول اللوائح المُسفرة والحجج النيّرة المثبتة لهذه الحقيقة التاريخيّة الرسالة الاولى التي انفذها البابا اكليمس تلميذ بطرس الصفا وخلفهُ على كرسيّهِ الاعلى الى اهل كورنتس فانّ لهذه الرسالة شأناً لا يُبلغ شأوهُ ويُدرك مداه. وان استثنينا الكتب المُنزلة والاسفار الالهيّة لا نجد في الاعصار الاولى اثراً اثبت عهداً واصدق دليلاً من

هذه الكتابة الجليلة التي لم يجسر احدٌ من أنداد كنيسة الله واخصامها على ان ينكروا صحتها. قال الاب كلمنت البنديكتي الشهير نقلاً عن اوسابيوس المؤرخ : « كانت رسالة اكليمس البابا تُقرأ علانيةً في الكنائس وتُعتبر لدى المؤمنين بمثابة الاسفار القانونيَّة. وقد نعتها ايرونيموس المؤرخ بالرسالة العظمى البديعة »

وافاض الدكتور الانكليكاني پالاي (Paley) بوصف هذه الطرفة ومدحها وأسند قولهُ الى شهادات الاباء الاولين كايريناوس تلميذ الاسقف پوليكرپ تلميذ يوحنَّا الحبيب الذي يفحم الهراطقة بتدوين هذه الرسالة وكديونيسيوس اسقف كورنتس الذي يشيد « نحو سنة ١٧٠ م اي نحو ٨٠ سنة فقط بعد تأليف هذه الرسالة « انها كانت تُتلى في كنيسته منذ زمن قديم »

وان اضفنا الى هذه الشواهد اقوال العلماء الاباحيين كبور (Baur) واشياعه ثم الحقناها بشواهد الكنائس الشرقيَّة كلها علمنا ان هذا الاثر من أصدق ما خطَّهُ قلم الآباء الاولين لا يختلف في صحته اثنان

وكأني بالقارئ يستحثنا فيقول: ترى ماذا تتضمَّن هذه الرسالة وباي شيء تثبت رئاسة حبر الاحبار على الكنائس الشرقيَّة ؟

لبيك ايها القارئ العزيز ودونك الجواب. اعلم ان كورنتس كانت اضحت حاضرة بلاد اخائية او بالاحرى عاصمة الاقطار اليونانيَّة جمعاء. مذ كانت خربت أثينا وذهب جاه أثينة العظمى. وكان اهلها يتباهون بثروتهم ونموّ مداركهم ومعارفهم الادبيَّة وعلومهم الفلسفيَّة. على انَّ رذائل التمدن الوثني افسدت اخلاق كثيرين منهم واظلمت عقولهم والتهم في مهامه الجهل والضلال. وكان لليهود في كورنتس الباع الطولى في المعاملات والمتاجرات. وهم يبالغون في المحافظة على سُنن الفريسيين فضلاً عن شرائع موسى

فلمَّا دخل بولس الرسول هذه المدينة وبشَّر فيها بالمسيح تنصَّر على يدهِ كثيرون فانشأ في كورنتس كنيسةً زها اعضاؤها بالفضل والفضيلة. بيد ان شيطان الفتنة استفزَّ بعد ابتعاد الاباء المصطفى قلوبَ بعض المرتدين من اليهود فسوَّل لهم ان يحدثوا شقاقاً بين جمهور المسيحيين فاضطرَّ بولس الى ان يكتب لهم رسالتين يوبِّخ فيهما اصحاب الشعب والخصومات ومن قولهِ (١ كو ١ : ١٠) : « اسألكم ايها الاخوة باسم ربنا يسوع

المسيح ان تقولوا جميعكم قولًا واحدًا وألّا يكون بينكم شقاق بل تكونوا ملتئمين بفكر واحد ورأي واحد »..فتمكّن رسول الامم من كبح جماح الفتنة بسطوته واخمد ضرامها الى حين

ولكن ما لبث بولس الرسول ان فاز مع بطرس باكليل الاستشهاد في رومة امّ المدائن. فظنّ اصحاب الفتن انّ الجوّ خلا لهم فيمكنهم ان يزرعوا في قلوب الكورنثيين بذور آرائهم الباطلة فضرب الشيطان ثانيةً قبابهُ بين نصارى كورنثس. فثارت ثوائر القوم وتعدّدت الاحزاب وتضاربت الآراء. وحدث من جرّاء ذلك شقاق لم يستطع اسقف المدينة ان يُريح بابهُ الّا بالالتجاء الى رئيس تُذعن اليهِ رعيّتهُ وتنقاد الى قولهِ لما خُوّل من السيادة والسلطة. وما كان هذا الرئيس الاعلى سوى اسقف رومة وهو وقتئذٍ اكليمس ثالث خلفاء بطرس الرسول فرفع اليهِ اسقف كورنثس امر كنيستهِ وطلب منهُ ان يحسم هذا الداء بسلطانهِ السامي قبل ان يستشري الفساد ويشيع الحرق. فاسرع اكليمس وارسل الى اهل عاصمة اخائية الرسالة التي نحن الان بصددها فكانت هذه البراءة الرسوليّة الاولى التي اصدرها الاحبار الرومانيون وبها عادت الراحة والسكينة الى كنيسة كورنثس بعد الهيجان والبلبال

وهنا يجدر بنا ان نعتبر هذا الامر الجسيم ونسبر غور معناهُ فنقول مع اسقف أنجه السيد فريبل (Freppel): « تُرى لماذا اسرع زعيم كنيسة كورنثس فزع الى رومة وطلب من راعيها النجدة في بلائهِ ؟ ألعلّهُ لم يجد بجوارهِ كنائس اخرى انشأها الرسُل ؟ أما كانت بيعة فيليبي وتسالونيكية وبيراي اقرب من كورنثس وفيها عدد من الاساقفة الافاضل الذين كانوا من جنس الكورنثيين يتكلّمون بلسانهم وهم يتخرّجون بآدابهم فماذا حمل راعي كنيسة رسوليّة الى ان يعدل عن الأقربين ويجتاز البحار ليستغيث بكرسيّ رومة البعيد ؟ وما لهُ لم يلتجئ الى كنائس ازمير وافسوس وآسية الصغرى ومنها كانت مياه النصرانيّة جرت اوّلًا الى كورنثس ؟ أفما كان الاحرى بالأبنة ان ترفع امرها الى امّها التي غذتها بافاويق الايمان ؟ وزد على ذلك انّ التلميذ الحبيب يوحنّا الرسول كان وقتئذٍ في قيد الحياة يسوس هذه الكنائس بخبرة وحكمة ليس لهما مثيل فما بال اسقف كورنثس لم يحتفل بكل هذه الاعتبارات ووجّه نظرهُ الى رومة وحدها لو لم يعرف ان هناك مركز السلطة وان لكرسي رومة وحدهُ ان يحلّ المشاكل ويبتّ الحكم الفصل. ولولا ان هذا

الامر كان ثابتاً عند اهل كورنتس لكانوا نبذوا ظهرياً حكم الحبر الروماني بدلاً من ان يتلقّوهُ بالطاعة والاذعان كما فعلوا. فرفع دعوى الاستئناف الى رومة وطاعة الكورنتيين دليلان ساطعان على ان المؤمنين الاولين كانوا يعتبرون كنيسة رومة كالكنيسة الاولى التي يحقّ لها الحلّ والعقد والامر والنهي وما لذلك داعٍ آخر الّا لان الحبر الروماني كان خليفة لبطرس الذي عُهدت اليهِ رعاية الكنيسة جمعاء بقول الرب لهُ المجد: «ارعَ خرافي... ارعَ نعاجي»

*

هذا وان في مضمون الرسالة المنوَّه بها برهاناً آخر على الحقيقة التي نريد بيانها فانَّ كلام صاحبها ينبئ بتمامهِ فتراهُ ينبّه ويحذّر ويرشد ويزجر كما يفعل من قُلّد سلطان

وقد افتتح اكليمس رسالتهُ بوصف حالة الكورنتيين في زمن وفاقهم وطاعتهم الى رؤسائهم «اذ كانوا يعيشون بالحبّ والوداد سائرين بموجب وصايا الرب يسوع وممتثلين لاوامر الرسل وكهنة الله القائمين لتدبيرهم. فكانوا اذ ذاك مثالاً لجميع الكنائس وقدوةً للمؤمنين وغير المؤمنين. يباشرون المبرّات ويتسابقون الى عمل الصالحات»

ثمَّ يتخلّص البابا اكليمس الى ذكر الخصومات والانشقاقات التي دخلت بين اهل كورنتس فحطّت من شأن هذه الكنيسة وصارت كصخرة عثار لمن يراهم. ثمَّ يبحث عن سبب هذه الشرور المتفاقمة فلا يجد سبباً آخر غير عصيانهم على رؤسائهم الروحيين وانكارهم عليهم الطاعة

واذ وجد اكليمس اصل الداء تراهُ في رسالتهِ كأبٍ حنون وطبيب حاذق يطلب للملّة علاجاً شافياً يتلافى بهِ المرض وينجي العليل من سوء العقبى. وهذا الدواء المطلوب هو اعتبار نظام الكهنوت العجيب الذي رتّبهُ الله نفسهُ في كنيستهِ. «فكما انَّ الربَّ اقام في العهد العتيق عظيم الاحبار وجعلهُ في رتبة خاصّة ثمَّ جعل تحت امرهِ الكهنة واللاويين وعيّن لكل منهم خدمةً معلومة وجعل في الرتبة السفلى لفيف الشعب هكذا يُقتضى عليكم ايها الاخوة ان تحافظوا جميعكم على مراتبكم ولا يتعدّى احد طورهُ بل يتمّم كلٌّ واحد بنشاط خدمتهُ التي اصطفاهُ الرب لانجازها»

ثم بعد ذكر الذبائح والقرابين التي كانت تُقدَّم للرب في العهد القديم في اورشليم

يشرع القديس بوصف نظام الكهنوت الذي « انشأهُ المسيح المُرسل من الله بمثل السلطان وقد اجاز المسيح سلطانهُ الى رسلهِ الابرار وارسلهم الى العالم كلهِ ليبشّروا بملكوت الله. فلبّوا الى امر سيّدهم وانتشروا في البلاد كلها واناروا الشعوب بأنوار الايمان القويم » (رسالة اكليمس الاولى الى اهل كورنتس الفصل ٤٣)

لكنّ رسل المسيح علموا حقّ العلم انّ الايمان لا تثبت دعائمهُ في القلوب إلّم يقيموا رُعاةً ينوبون عنهم في الروحيّات ولذلك « جعلوا لكلّ الكنائس اساقفة وشمامسة قلّدوهم الحكم على المؤمنين ليحافظوا على وديعة الايمان ويجذّروا في تنصير اهل الشرك. ولا غرو ايها الاخوة فان موسى كليم الله فوّض الى رؤساء الاسباط الاثني عشر شيئاً من سلطانهِ وهكذا رسل المسيح فانهم لمّا سبقوا فعلموا ان ستقوم بعدهم الشقاقات والخصومات بسبب الرتبة الاسقفيّة تداركوا ذلك ووضعوا في الكنيسة قوانين ثابتة لاختيار خلفائهم الذين يتولون بعدهم شؤون الكنائس. فاذا جرى هذا الانتخاب الشرعي وصادقت عليهِ الكنيسة العامّة ثبت واستقرّ. ولا يجوز لنا بدون اثم ان نعزل هؤلاء الرعاة الشرعيين الذين اذا قاموا بمهنتهم قياماً حسناً ورعوا بنشاط قطيع المسيح » (١

ولهذه الرسالة ختامٌ حريٌّ بالنظر يزيد برهاننا قوّةً وكان هذا الختام سقط من الاصل اليوناني ولم يزل مجهولاً الى يومنا حتى اكتشف عليهِ في خزانة كتب الفنار في الاستانة العليّة فيلوثاوس بريانيوس احد اساقفة الروم الارثدكس فنشرهُ بالطبع واتّفق كلّ العلماء على صحتهِ. ففي هذا الختام يقول اكليمس الى اهل كورنتس (الفصل ٥٩ من طبعة ليبسيك) : « هذا هو حكمنا فان أطعتم امرنا فنعماً اما اذا ردّ بعضكم ما فاه بهِ المسيح عن لساننا فليعلموا انهم يتهوّرون في خطر عظيم ونكون نحن ابرياء من اثمهم ». وكذلك في الفصل ٦٣ يقول: « انكم تفعلون قلبنا سروراً ان امتثلتم لاوامرنا هذه (ὑπήκοοι γενόμενοι τοῖς ὑφ'ἡμῶν γεγραμμένοις) المخطوطة بالهام الروح القدس واستأصلتم اصول البغض والشحناء بموجب السلام والوفاق الذي وصفناهُ في رسالتنا هذه ... وقد أرسلنا اليكم رجالاً ابراراً ليكون شهوداً بيننا وبينكم ويسعوا بامر السلم قريباً بين الخصوم وذلك لتعلموا غيرتنا على صلاحكم »

١ راجع اعمال آباء اليونان (بين الجزء الاول ص ٢٩٣ ف ٤٤)

فهذه هي الرسالة البديعة التي بعث بها اكليمس البابا الى المؤمنين في كورنتس ولولا ضيق المكان لاثبتنا منها فصولاً كثيرة تنطق كلها بما استعر به قلب اكليمس من المحبة لهذه الكنيسة المبتلاة بالشقاق والخصام. فلعمري أهكذا يكون كلام رجل ليس له شيء من السلطة؟ او كيف يستطيع ان يزجر المشاقين وينذرهم بالبلاء والاخطار ان لم يرعووا فيطيعوا رؤساءهم؟ بل كيف يجسر اكليمس ان يطلب الطاعة لنفسه كما للمسيح ان كان لم ينل بحق الخلافة البطرسية السلطان الكامل لرعاية الكنائس كلها؟ أفيقال ان اكليمس نسب الى نفسه سلطة مختلسة وهو من مشاهير القديسين الشهداء تكرمه الكنائس الغربية والشرقية معاً؟ وكيف رضي بوساطته اهل كورنتس لو علموا انهُ لا سلطة لهُ عليهم؟ بل كيف اعتبرت كنائس الشرق هذه الرسالة اعتبارها للكتب المنزلة كما شهد اوسابيوس المؤرخ (ك ٢ ص ١٦) اذ قال انَّ هذه الرسالة كانت شائعة في كنائس آسية تُقرأ فيها أيام الآحاد كما تُقرأ رسائل بولس الرسول

وزد على ذلك ان اكليمس لم يكتفِ هذه المرة بمكاتبة اهل كورنتس. فان كنيستهم بعد رجوعها الى الهدوء والطاعة بقيت مدة راتعة في بحابح السلام وهي تنمو وتزداد عدداً وفضلاً حتى هجمت عليها ذئاب خاطفة وهم قوم من هراطقة الابيونيين والدوقيتيين والبراتيين. فلما بلغ الخبر مسامع اكليمس بادر فكتب نحو سنة ٩٨م رسالة ثانية أقرَّ بصحتها ابيفانيوس (في كتاب الهرطقات ٣٠ ع ٢٧) وفوطيوس (في مكتبته ع ١٢٦) ليثبت المؤمنين في الايمان ويرشق اصحاب الشيع بسهام الملامة والتقريع. واظهر بذلك انهُ الراعي الصالح الساهر على القطيع الذي وكلهُ اليه الرب وانهُ معلم الكنائس كلها والمفوَّض اليه ملء السلطان عليها

*

ومن الشهادات اللاحقة بالقرن الاول على رئاسة خلفاء بطرس شهادة نيرة لذلك القديس العجيب المدعو حامل الله (Θεοφόρος) نعني به اسقف انطاكية الشهيد اغناطيوس († ١٠٧) فانهُ صدَّر رسالتهُ التي وجَّهها من ازمير الى الرومانيين بكلام يُشعر باعتقاده في رئاسة الكنيسة الرومانية وهذا قولهُ بالحرف (مجموع آباء الكنيسة اليونانية ٥: ٦٨٦): اغناطيوس المدعو حامل الله الى الكنيسة التي نالت رحمةً من لدن الرب لآب العلي وابنهِ الوحيد يسوع المسيح وهي الكنيسة العزيزة المنوَّرة بمشيئته تعالى التي

تراس (προκάθηται) في عاصمة بلاد الرومانيين الخليقة بالله (θεοπρεπῆς) المستحقة الشرف الجديرة بان تُدعى مطوّبة الحريّة بالثناء المتقدمة (προκαθημένη) على جماعة المحبة المشرّفة باسم يسوع المسيح ابن الاب سلام . . . »

أفلا يرى القارئ لاوّل وهلة ما في مطلع هذه الرسالة من الشهادة لتقدُّم كنيسة رومة ورئاستها على جميع الكنائس ؟ فانهُ لم يكتفِ بان ينعت الكنيسة الرومانيّة بنعوت وصفات جليلة لا شبه لها في رسالاتهِ الى بقيّة الكنائس بل وصفها بالرئاسة على جماعة المؤمنين المشتركين بمحبّة الرب . وقد اختار للدلالة على هذه الرئاسة لفظة لا تعني فقط التقدُّم والشرف والمقام بل تدلُّ على السيادة والامر فان لفظة (προκάθηται) وردت ما خلا هذا المكان في موضعين آخرين فقط من رسائل اغناطيوس وذلك في كتابهِ الى اهل مغنيسيّة وفي كلا المكانين تدلُّ على رئاسة الامر لا على الشرف فانهُ هناك يحضُّ المؤمنين بان يطيعوا « الاسقف المتقدّم نيابةً عن الله » وان يعيشوا بالاتحاد مع اسقفهم والمتقدّمين عليهم » فينتج من ذلك انَّ القديس اراد ايضاً بكلامهِ عن كنيسة رومة ليس التصدُّر فقط بل السيطرة والرئاسة . ويظهر ذلك جليًّا اذا قوبل بمطلع رسالتهِ الى بقيّة الكنائس فانهُ لا يكتب الى تلك الكنائس انها « متقدّمة على افسس » او « على ازمير » بل يكتب « من اغناطيوس الى الكنيسة التي هي (τῇ οὔσῃ) في افسس » او « هي في ازمير » . وزد على ذلك انَّ هذا الشهيد العظيم في اثناء رسالتهِ يقرُّ بعظمة كنيسة رومة حيث يقول للرومانيين : « ليس لكم ما تحسدون بهِ غيركم البتّة فانكم انتم الذين تعلّمون الآخرين وانا أُثبت واقرّر ما تعلّمون وما تأمرون بهِ » . فالله درُّها من شهادة نفيسة لا تترك في النفوس ريباً عن تقدُّم كنيسة رومة بالسلطان وحسن المعتقد وتعليم الكنائس . وفي هذا كفاية لبيان ما قصدنا هذه المرّة . وان شاء الله نورد في مقالة أخرى ما لدينا من الشواهد عن الرئاسة البابويّة على كنائس الشرق في القرن الثاني

ميخائيل البحري الرومي الملكي الشاعر واولادهُ

نبذة للاب لويس شيخو اليسوعي

كنّا وعدنا في ما سبق والحرُّ يجزّ الوعد بانّنا نواصل البحث في مشاهير رجال المشرق ممّن شادوا لهم في زمانهم من العلوم صرحاً منيعاً . او اصابوا بسموّ مداركهم